المأثورات الشعبية

المأثور: هو ما ورث الخلف عن السلف، وهو اصطلاح يتعلق -في الأصل بكل الموروثات، غير أن معناه تطور وصار أكثر تحديداً إذ يدل على كل ما يتعلق بالموروثات الفكرية الأيديولوجية عامة، والآداب والحكم والأمثال خاصة، بينما صار الموروث يحتل المنطقة الدلالية التي تنازل عنها اصطلاح (المأثور) غير أن المأثور ظل يحتفظ بعمقه التأريخي بينما الموروث لا يحمل معناه شرطاً لعمق تاريخي ما فالموروث قد يطلق على المبادلة التناولية بين الأجيال المتلاحقة أي أن يحصل عليها الجيل اللاحق بالجيل الأب الذي عايشه في حقبة زمنية غير عميقة وقد أدخل العالم الأنثروبولوجي «تايلور» E.B Tylor تطويراً دلالياً جديداً على مصطلح الموروث إذ صاغ مصطلحه الأنثروبولوجي المعروف «الموروثات» Superstitions إضافة إلى ما يشير إليه هذا الإصطلاح من معنى الموروثات المادية كالآلات والأدوات والدُّمن وما يُعنى به علم الإنسان (الأنثروبولوجيا) هو دلالة هذه الأشياء على الحضارات وأسلوب حياة الإنسان فيها.

وقد درج الباحثون والقراء في العربية على استخدام المصطلح الإنجليزي (فلولكلور -Folk lore) دون تعريب علماً بأن ترجمته (مأثور شعبي) ميسورة النطق طيعة الإستخدام ولا يتضمن تاريخها الفيلولوجي أية معوقات دلالية فالمأثور الشعبي مصطلح أقرب إلى الوجدان العربي، إضافة إلى أن أولئك الذين يستخدمون هذا المصطلح يخلطون بينه وبين حقول عمل الفولكسكندة Volkskunde الألماني، وهو أكثر اتساعاً، دلالياً وواقعاً عملياً، وإننا لنعلي من قيمة المصطلح بلفظه العربي ونؤكد على أهمية ترسيخ ترجمته في نفوس الأجيال باللفظ العربي.

وقد حدد الكسندر كراب التوصيف المنهجي للفولكلور حيث وصفه بأنه «علم تأريخي» (1)، فهو «تاريخي» لأنه يحاول أن يكشف عن ماضي الإنسان وتاريخه ويتعرف على تطوره المادي والوجداني من خلال مأثوراته، فيما عرف بإعادة البناء التأريخي Historical Reconstruction، وهو كذلك «علم» لأنه يستخدم طرق القياس التي تحكم سائر الأبحاث العلمية، بينما آليات التأمل واستنباط الاستنتاجات المبنية على أفكار مجردة ذات تعقيد معرفي مسبق، يجعل منها مجرد مساند هامشي لاستكمال البنية البحثية ذات الصفية العلمية وترميم حصيلة الجمع الأثاري للنصوص والمأثورات في ضوء المعرفة الرئيسية لأيديولوجية العصر الخاضع للدراسة.

هذا هو الوصف المنهجي لمصطلح الفولكلور، لكن ما هو موضوعه؟ من العلماء من غالى في توسيع رقعته، فيرون أنه مكرس لدراسة المأثورات المنطقية والوجدانية والمادية التي خلفتها الشعوب، ومنهم من قصر الفلكلور على الثقافة الشعبية ومنهم من ضيق الدائرة أكثر معتقداً أنه دراسة (الادب الشعبي)، لقد تطور مفهوم المصطلح -ومن ثم مواضعاته وحقوله- في أوروبا وأمريكا وتبعتها معظم بلدان العالم الأخرى ومن بينها الدول العربية، بحيث صار الفولكلور يشتمل على قسمين رئيسين تذكرهما أغلب المصادر العربية، هما:

1- الفنون القولية بجميع أنواعها، والموسيقى والعادات والتقاليد والأفكار والمعتقدات والمعرفة والعواطف والسلوك بوجه عام.

2- الفنون الشعبية المادية أو (العاديات) وهي المحسوسات الاثارية المخلفة عن الأجيال البعيدة الماضية من أدوات وملابس وعناصر مادية حياتية أخرى مثل الملابس وأدوات العمل والأدوات الموسيقية التقليدية القديمة مثل الربابة والطبلة والقيثارة وغيرها، وكذلك أدوات الصناعة

علاء الدين رمضان

والزراعة التي كانت مستعملة قديماً.

ولا يعني عرضنا لهذين القسمين موافقتنا لهذا التقسيم ومواضعاته -على نحو ما سنبين في تقسيمنا المقترح بنهاية المقالة- كما أنه لا يعني كذلك أنه يمثل جملة الإتجاهات التي لا يجمعها رابط محدد اللهم إلا الرغبة في الإدلاء بدلاء المشاركة وخوض غمار المساهمة، وليس المجال هنا يسنح بعرض هذه الاتجاهات، لكن ما يهمنا هو عرض وجهة نظرنا فيما نراه جديراً بالاهتمام فيما يخص متعلق المواضعة هل الفولكلور يتعلق بطبقة دون الأخرى من الشعب، أو بنوع محدد من الناس؟ الدراسات الألمانية رأت أن الفولكلور هو دراسة تراث «الطبقة الدنيا» Lower من الشعب، وهو الاتجاه الذي ارتاح إليه في تحديد دور الفلكلور فيجب تقسيم التراث الثقافي للأمة إلى تراث ثقافي رسمي يخضع لجميع المعايير الرسمية لغوياً وسياسياً واجتماعياً، وتراث ثقافي غير رسمي هو حقل الدرس الفولكلوري، لكن ما هي الحدود التي تحفظ هذا العلم وتحميه من التشتت وعدم التحديد الدقيق لمجالاته، ما هي حدود علم الفولكلور ودوره وحقوله التي يصول فيها ويجول؟ سؤال لم تتحدد الإجابة عليه إلى الآن غير أن كثرة من المقترحات ووجهات النظر تزدحم بها الأبحاث والدراسات في هذا المجال تدلي بدلوها في محاولة تحديد أطر عمل تلك الحقول، إلا أن من يبحث في مثل هذه الدراسات لا يجد فيما اطلع عليه من نتاج السابقين ما يلائم أفكاره ورؤاه لذلك يأتي الباحث المحدث برأي جديد يضاف إلى تل كبير من المقترحات المدونة غير المقطوع باختيار أحدها صراحة، ومن ثم التواضع عليه.

فالأنثروبولوجيا وعلماؤها يطالبون في ثبات عجيب بأن تستطيع مفهوم «فولكلور» لدراسة كل ما يتعلق بالإنسان القديم من موروثات ومأثورات، وحقيقة فنحن ندهش لهذا الاتجاه، كيف تطمح الأنثروبولوجيا أن تجعل من الفولكلور نسخة مطابقة منها تؤدي دورها تقريباً في الوقت الذي لن ترضى فيه بالانضواء تحت مظلة الفولكلور كمنهج فرعي من مناهجه، مع أن المنطقي -في رأينا- أن يحدث العكس، بأن يدخل الفولكلور كمنهج فرعي تحت مظلة الأنثروبولوجيا، ويصير علماً متفرعاً عنها في هذه الحالة سيقتصر مجال عمله على المأثور من الأفكار دون الماديات النفعية فيكون مجال عمله (الآداب والفنون والموسيقى)، على أن يظل من ناحية أخرى مشروطاً بفاصل زمني محدد يحول بينه وبين المعاصرة، وأعتقد أن ثمة أصواتاً تعالت منادية بتحديد مدة تصل إلى ثلاثين سنة للحديث وخمسين سنة للمعاصر، وذلك في الاداب الرسمية، ونحن نقترح مدة مقدارها مائة سنة بالنسبة للأدب الشعبي ومأثوراته مع إحياء ومؤازرة النزعات التي تهتم بالأدب اللهجي الحديث والمعاصر وبحثه ودرسه وتجهيزه لمن يلحق بنا ويدرس هذا اللون من الإبداع على اعتباره مأثوراً شعبياً، إن أتيح لنماذجه من الذيوع والانتشار ما يؤهلها لتتبوأ هذه المكانة، كما نقترح تقسيم فنون المأثورات الشعبية إلى أقسام ثلاثة، من واقع فرضيات المواضعة كما نعرضها في الأقسام المقترحة:

أولاً: فنون سمعية

ثانياً: فنون مرئية (مادية)

ويلحق بهذين القسمين ثالثهما الذي يجمع في إطاره العلاقات المنطقية المجردة، هذه الفنون هي فنون الأنماط الاجتماعية والسلوكيات مثل الأنماط التربوية والأخلاقية والقيم والعادات الثقافية والمعتقدات.. وغيرها وغالباً ما يكون المصدر الأول في استنباط حدود هذا القسم هو استقراء معطيات القسمين الأولين.

ولسنا نرى مثلما رأى الزملاء من قبلنا أن الفنون الشعبية تنقسم إلى فنون قولية وغير قولية، لأن الفنون القولية عندئذ تحتم علينا أن ندخل في إطارها المترهل ما ليس من الفولكلور من قبيل كلاسيكيات الآداب الذائعة مثلاً، كما أن علينا أن نتسامح لدرجة موغلة في السلب والتسطيح الفكري عندما نقرن الحكايات المأثورة والشعر الشعبي بالمأثورات الموسيقية فنخضعها لنفس مقاييس الشعر والحكايات والسير الشعبية، بينما المأثورات الموسيقية تحتاج إلى مناهج بحثية خاصة، تأخذ في اعتبارها القيم الموسيقية الخاصة، فهذه الموروثات إن كانت تتضمن قيماً بلاغية (الأغنية) فهي تعتمد بالدرجة الأولى على اللحن لإكساب الموروث دلالته العميقة، وقد يكون إقصاء تلك الاعتبارات سبباً مهماً في هدم دقة نتائج البحوث فما دلنا مثلاً على ميل «شعب البوشمت» (2) إلى الطقوسية الغرائبية والاحتجاب والغيبيات سوى الإيقاعات الموروثة وما دلنا على هجرة قبائل إفريقية «أو نتاجاتها الأيديولوجية» إلى جنوب شرق اسيا وبعض المناطق الأوروبية، إلا تلك الايقاعات ذات النسق الخاص، قريبة الشبه جداً بالايقاعات الافريقية، علنا نجد في تعبير الدكتور «ثروت عكاشه» ما أراده له صاحبه من فيوضات وجدانية عندما قال: «إن الموسيقى تبدأ من حيث تنتهي قدرة الألفاظ على حمل المعاني والأفكار (3) كما أن عماد الشعر والحكايات والأغاني الشعبية، وكل المأثورات الشعبية أولاً هو السماع ولم تدخل هذه الفنون حيز التدوين إلا في إطار الاهتمام العلمي بها.

الهوامش:

1- أنظر الكسندر كراب: علم الفولكلور، ترجمة رشدي صالح، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة 1967م، ص18.

2- البوشمن Bosjeman: مجموعة من القبائل كانت أول من سكن جنوب وشرق إفريقيا، تعتمد حياتها على التنقل في الصحراء.

3- د. ثروت عكاشه الزمن ونسيج النغم، (ص: 11)، دار المعارف القاهرة 1980م.

فوق أصابع من ريح

زكريا محمد

رحيل في الليل

تركوا الرمان في الاغصان
والريح على حبل الغسيل
تركوا الموتى إلى القبلة مبهوتين
وانسلوا
وساروا هادئين
ليتهم قد اشعلوا القنديل
حتى أتقرى ظلهم
ليتهم قد خلفوا شيئاً على الشباك
يهديني الى أي سبيل
تركوا الصمت على الاغصان
والريح على «الانتين»
والتفوا.. وساروا هائمين.

الكتيبة الملعونة

ومن ارضٍ الى ارض
ومن شوك الى حجر الى جبل
لا شيء سوى طبل الصمت
يقرعُ فوق رؤوسهم
ظلالهم أشجار في الليل
وكلاب سود بين أقدامهم في النهار
يتقدمون
مثل نهر بلا مجرى
مثل نهر بلا مصب
لا غضب ولا حزن ولا أمل
جنرالٌ رهيب
جنرال لا يعرف الرحمة
أصدر الامر:
إذهبي الى البلاد التي لن تصلي اليها
إذهبي
يا كتيبة الدم
يا كتيبة ملعونة

مرة واحدة فقط

نسخة واحدة من المفتاح
كي لا يدخل إلا الأشباح
مدينة واحدة في القلب
حتى يكون الرحيلُ مراً
عمرٌ واحد فقط
عمر واحد
حتى تكون الحياة أشد هولاً